

الفصل الثامن

انتصار الإنسان في جنوب لبنان

لا يتعامل الإنسان مع واقعة بشكل مادي مباشر، وإنما يتعامل معه من خلال مجموعة من الأفكار والرموز والأساطير. وقد أصبحت الصور المجازية والأساطير جزءاً أساسياً من الحروب الدائرة في العالم، خاصة في عصر الإعلام. إذ يبحث كل فريق مقاتل عن مجموعة من الشعارات والصور المجازية التي يبرر بها موقفه ويسبغ عليه قدرًا من الشرعية. وحينما ظهر رجل أوروبا النهم (أي الاستعمار الغربي) وتفتحت شهيته وقرر التهام العالم وجد أن عليه أن يستخدم مجموعة من الصور المجازية والأساطير فأطلق على الدولة العثمانية اصطلاح «رجل أوروبا المريض» أي أنه حولها من خلال صورته المجازية إلى رجل مريض مينيوس من حالته سيتحول إلى جيفة ميتة بعد قليل، ولا غصاصة بطبيعة الحال في اقتسام الجيفة، بل إن هذا يُعد خدمة للإنسانية العذبة!

جغرافيا بلا تاريخ

وقد ورث الصهاينة هذا الإجراء الواعى أحيانًا، وغير الواعى أحيانًا أخرى، وصعدوا منه، خاصةً وأن اليهود وإسرائيل وفلسطين وصهيون هي مقدرات أساسية في الميراث الدينى العربى، ولذا نجد أن الصهاينة قد

أحاطو فلسطين بدخان كثيف من الأساطير، صدّقه بعضنا، فقد أشاروا إلى فلسطين باعتبارها «أرض بلا شعب» (يمكن للصهاينة سراؤها وتفريغ سكانها منها) ولذا أشاروا إلى وطننا العربي باعتباره «الشرق الأوسط» ثم «المنطقة» وحسب، أى أنه تم إدراك كل شىء بحسابه مكائناً لا زمان له، جغرافياً بلا تاريخ، شىء بلا ذاكرة، كل هذا جعل الشرق العربي منطقة يمكن للجيوش الصهيونية أن تصل وتجول فيها دفاعاً عن «أمنها» و«حقوقها» وأصبح العرب مفعولاً به لا فاعلاً، فالفاعل هو الصهاينة وجنودهم المقاتلون الشرسون، بل إن الجماعات اليهودية فى العالم (التي يُشار إليها باعتبار الشعب اليهودى) أصبحت جماعة من البشر يدور تاريخها حول المكان، فهو تعبير عن الرغبة فى العودة إلى فلسطين «إرتس يسرائيل»، مكان توقف فيه التاريخ، ولذا فهو ينتظر عودتهم بفارغ الصبر.

وانكار الزمان هى إحدى سمات العقل الصهيونى الذى يحول الزمان (حيث يتحرك الإنسان ويحقق الإنسان إنسانيته أو يجهضها وحيث يمارس حريته وإرادته) إلى مكان مصمت. والزمان بالنسبة للعربى هو الحيز الذى يمكنه أن ينهض فيه ويحرر أرضه ونفسه، ولذا فالعقل الصهيونى يمقت الزمان ويؤثر أن يتحرك فى المكان. وقد تُرجمت هذه الرؤية إلى عدة صور مجازية: فالدولة الصهيونية تارة «حائط فى آسيا لحماية أوروبا» و«حصناً منيعاً للحضارة الغربية فى وجه الهمجية» (عبء الرجل الأبيض الصهيونى!)، وهى تارة أخرى «الحارس الغربى فى المنطقة». وفى لحظات الصدق تُستخدم صورة «كلب الحراسة: رأسه فى

واشنطن وذيله في القدس»، أي أنه كلب حراسة لا عقل له، أو أن عقله في واشنطن، فهي التي تفكر، وهي التي تمد الكلب بالحياة، أما ذيله التنفيذي فهو هنا في وسطنا في عالمنا العربي. وبالطبع هناك الصور المجازية الأكثر وضوحاً مثل «إسرائيل باعتبارها حاملة طائرات»، وقد صاحب هذا مجموعة من الصور المجازية الأخرى مثل جيش إسرائيل باعتباره الذراع الطويلة التي تصل إلى أي مكان، والقوة الباطشة الأسطورية التي لا تُقهر، والصهيوني باعتباره المقاتل الشرس الذي لا يُهزم، والذي يدافع عن أرضه بشراسة، ويلاحظ أن كل الصور المجازية هنا تُسقط الآخر العربي باعتباره وجوداً يتحدى الوجود الصهيوني وتُسقط عنصر الزمان والتاريخ باعتبارهما المجال الذي يعبرُ فيه الآخر العربي عن نفسه.

في هذا الإطار تأسست نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على المكان والتي تنكر الزمان، وأصبحت المشكلة الأمنية بالنسبة للصهاينة مسألة حدود جغرافية أمنة وأراض يتم الإستيلاء عليها، وسكان يتم ضربهم بيدٍ من حديد. وفي هذا الإطار تُصور الصهاينة أنهم يمكنهم حل كل مشاكل المستوطن الصهيوني الأمنية، ومع نكسة عام ١٩٦٧ تدعّم هذا الاتجاه تماماً، فأعلن الصهاينة أنهم وصلوا للحدوم الآمنة، والحدود الدائمة، وأنهم سيمكثون هناك إلى أن يقوم العرب بالتسليم، كان خط بارليف هو بلورة لهذا الموقف وأيدهم العالم الغربي في موقفهم هذا، فقد أحسوا أن الزمن قد قُتل، وأن التاريخ العربي والصراع العربي الإسرائيلي قد وصلا إلى نهايتهما!

ومن الأساطير الأساسية الأولى التي صدّقها الإسرائيليون والتي ورثوها من ترسانة الأفكار الإمبريالية الغربية، هي الإيمان بأن القوة قادرة على تحقيق 'أى شئ'، فالعالم، فى نهاية الأمر، يشبه الغابة، وقد ترجم هذا نفسه إلى ما سماه موسىه ديان «خلق الحقائق»، أى أن تغتصب الأرض بالقوة وبمضى الوقت يصبح الاغتصاب حقيقة قائمة على الجميع الاعتراف بها والتعامل معها، هكذا فعلوا فى فلسطين باسرها، وفى مناطق أخرى من العالم العربى.

والتوسعية الصهيونية هى إحدى تجليات مفهوم العالم كغاية هذا، والقوة كآلية وحيدة لحسم الصراع، ولذا مع وجود الآلة العسكرية الصهيونية لم لا يمتد الوطن « القومى » من النيل إلى الفرات؟ (كما صرح الحاخام فيشمان عضو الوكالة اليهودية فى أربعينيات القرن الماضى)، وكما بين أورى أفنيرى أن ما يحرك الصهاينة ليس الدافع العقائدى وإنما موازين القوى وحسب، ولذا فالتوسع الصهيونى لم يتوقف ما دام هناك فراغ بسبب الغياب العربى، وقد تمدد الصهاينة وتوسعوا لملأوا الفراغ فى جنوب لبنان وليخلقوا حقائق صلبة جديدة فيه.

والرؤية المتمركزة حول المكان قد ترجمت نفسها إلى أسطورة ماسادا، و«ماسادا» كلمة آرامية تعنى «القلعة»، وكانت توجد بها حامية رومانية هاجمها بعض المتمردين اليهود عام ٦٦ ميلادية إبان التمرد اليهودى ضد الإمبراطورية الرومانية واستولوا عليها وذبحوا كل أعضائها. وقد أخذ

الرومان التمرد وقاموا بحصار القلعة، وتقول الأسطورة: إنه بدلاً من الاستسلام والوقوع أسرى فى أيدي الرومان آثر اليهود ممارسة انتحار جماعى. وقد ثبت كذب هذه القصة، ومع هذا تقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلى بمحاصرة العقلية الإسرائيلىة واليهودية بأسطورة ماسادا، ففى كل عام تُقيم بعض أسلحة الجيش الإسرائيلى احتفالات ترداد يمين الولاء على قمة القلعة ويقسمون فى نهايته بأن ماسادا لن تسقط ثانية.

وقد أضفنا نحن من عندنا أسطورة يهودى البروتوكولات، وهو شيطان يوجد خارج الزمان، قادر على تحريك العالم بأسره، وزرع الفساد فى ربوعه وإسقاط الحكومات وتوجيهها حسبما يريد، والسيطرة على الإعلام وحركة رؤوس الأموال، ونلاحظ أنه إذا كان اليهودى بهذه القوة فلا يوجد ما نفعله سوى الاستسلام، أو الفرار، لأن الحرب ضد مثل هذا الشيطان هو من قبيل الانتحار! فكل من البروتوكولات (المعادية لليهود) وماسادا (الصهيونية) يتفقان فى عدم جدوى الجهاد وضرورة الاستسلام.

وحينما وصلت القوات الإسرائيلىة إلى بيروت أرسلت رسالة واضحة عالية إلى كل الدول العربية: إنها على أتم استعداد أن تذهب إلى أقصى حد كى تحقق أهدافها الصهيونية بما فى ذلك احتلال العواصم العربية، وإن الولايات المتحدة على أتم استعداد أن تزاوّر إسرائيل فى مطامعها وبطشها. وما بين المطامع الصهيونية والقوة العسكرية الإسرائيلىة والمظلة

الأمريكية واللوبي الصهيوني لا يملك العرب بطبيعة الحال إلا التفاوض والاستسلام، أليس كذلك؟

بعث روح المقاومة

ولكن ما حدث في جنوب لبنان هزم كل هذه الأساطير وقضى عليها، والانتصار اللبناني على إسرائيل يوجب علينا أولاً وأخيراً أن ننظر بطريقة جديدة للصراع العربي الإسرائيلي إن كان فينا بقية من روح ووعى وضمير، لنؤكد للعدو أننا لسنا أمواتاً، وإنما يوجد جسد وروح وإرادة وعزيمة ورغبة في الاستشهاد في سبيل الله والوطن. وأن تاريخنا لم ينته، وأن الحياة تدب في أرواحنا، وأن روح المقاومة تسرى فينا، وأن إمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية (التي تساندها آلة الولايات المتحدة و الغرب) إمكانية حقيقية.

ولنبداً أولاً بوضع هذا النصر الأخير في إطاره الحقيقي، هو نصر باهر لاشك فيه، رفع رؤوسنا جميعاً، ولكنه ليس هو الوحيد، فهو ليس مجرد فلتة (كما يحلو لبعض الصهاينة أن يردوا حتى يطمئنوا أنفسهم، وكما يحلوا لبعض المهزومين من العرب أن يفعلوا حتى يحتفظوا بتوازنهم ويستمررا فيما هم فيه من غيبوبة واستسلام). إن انتصار المقاومة في لبنان هو جزء من نمط متكرر، فنحن في حربنا مع العدو ننتصر و ننتصر، و ننتصر و ننتصر، ولكننا والحمد لله لانستسلم، وما لاشك فيه أن هناك العديد من الانكسارات التي نعرفها جميعاً لكن هناك أيضاً انتصارات قبل

وبعد ١٩٤٨ يجب ألا ننساها. يجب أن نتذكر أن أطول حركة عصيان مدنى فى التاريخ وقعت فى فلسطين فى منتصف الثلاثينيات من القرن الماضى وغير ذلك من البطولات الفردية والجماعية. أما بعد ١٩٤٨، فلم تهدأ المقاومة قط ولكنها أخذت شكلاً أكثر تبلوراً فى أعمال المقاومة ابتداءً من عام ١٩٦٥ ثم معركة الكرامة فحرب الاستنزاف فانتصار عام ١٩٧٣ فالانتفاضة المجيدة عام ١٩٨٧ فانتفاضة الأقصى ٢٠٠٠.

إن تكرار النمط هو تأكيد لإمكانية الانتصار الأخير بإذن الله، ويجب ألا ندع آلة الإعلام الصهيونية ترسخ فى وجداننا غير ذلك، وانتصار حزب الله يؤكد هذا النمط ويبعث فكرة المقاومة مرة أخرى، فيرى الناس إمكانية الجهاد وإمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية التى تساندها الآلة الأمريكية والغربية بأسرها.

وفى محاولة لتبرير موقف الإسرائيليين تقول مجلة تايم «إن الإنسحاب وضع نهاية لاحتلال لا معنى له استمر لمدة ثمانية عشر عاماً، وأودى بحياة مئات الجنود الإسرائيليين. فلقد استمرت إسرائيل فى احتلال لبنان حتى تحارب حزب الله، وحزب الله حارب ضد إسرائيل لأنه بقى فى لبنان». وهذه أكذوبة، فدخول إسرائيل للبنان لم يكن للحرب ضد حزب الله وإنما لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الإسرائيلية الغربية، وهى تفتيت العالم العربى ابتداءً من لبنان، وحزب الله بدوره لا يحارب ضد إسرائيل لأنها فى جنوب لبنان وحسب، فالمسألة أعمق من ذلك بكثير.

فن تجفيف المستنقعات

وقد تأمل الإسرائيليون كثيراً فى أسباب انتصار المقاومة اللبنانية، وكعادتهم فروا المسألة بطريقة مكانية حتى لا يدركوا البعد التاريخى لهذا النصر، ولنترك باراك يتحدث، يقول هذا العنصرى القديم، الذى تنكّر فى زي امرأة واغتال بعض القيادات الفلسطينية فى لبنان وترأس فريق المستعرقيم (المستعربين) الذى كان يتنكّر فى زي عربى ويذهب إلى الأسواق الفلسطينية ويغتال بعض نشيطى الانتفاضة: «إن الحرب ضد الإرهاب مثل الحرب ضد البعوض، يمكن أن تطارد البعوضة تلو الأخرى، ولكنها حرب ليست مجدية من ناحية التكلفة»، ولنلاحظ أن الصورة المجازية هنا تحاول أن تحقق عدة أمور، التقليل من شأن المقاومة، وتحويلها إلى شيء لا قيمة له، بل ضارة، يجب التخلص منه وإبادته وإعطاء مبرر للصهاينة للانسحاب، فالمسألة بالنسبة له مسألة تكلفة لا أكثر ولا أقل.

ولكن الزمان يتسلل إلى خطابة، رغم أنه، فحينما سأله مندوب مجلة تايم إم لَمْ تطالب بالانسحاب من لبنان حينما كنت رئيساً للأركان؟ اضطر باراك أن ينطق بالحقيقة، فالمسألة قد تكون مسألة تكلفة ولكنها مسألة تكلفة «متصاعدة»، تبين أن العرب يتعلمون ويستفيدون ويطورون أنفسهم، يقول باراك: إنه لم يفسحب حينما كان رئيساً للأركان لأن الأمر لم يكن ناصحاً «حينذاك»، وكل من «متصاعدة» و«حينذاك» تفتحان الباب على مصراعيه للزمان، إذ إن باراك يعترف أن حزب الله قد نضج

بمرور الزمن، وكيف كان ذلك؟ «لقد قطع حزب الله مسافة طويلة منذ ذلك الوقت، مما اضطرنا لأن نزيد من استعدادنا وانتهى بنا الأمر بأن أصبح عندنا عربات مصفحة ضد متفجرات من عيار ٥٠ ك ج ، وهذا وحش كاسر حينما بدأنا كنا ندافع عن سياراتنا ضد الألغام، واللغم عبارة عن ٤,٥ كجم من المتفجرات، فوضعوا لقمين، الواحد مع الآخر، مما اضطرنا إلى أن نجعل سياراتنا أكثر تحصيناً، فابتخدموا أسلحة أكثر تطوراً من بينها صواريخ TOW وهي تصيب أهدافها بدقة، فتجد نفسك متورطاً في حرب متقدمة للغاية تتطلب الكثير من التكاليف. فبكل بساطة رغم أننا كانت يدنا هي اليد الطولى، إلا أن الموقف كان يتدهور بشكل حلزوني إلى أسفل ويؤدي إلى سحبنا بشكل أعمق وأعمق في الوحل»، رغم أن باراك لا يستطيع أن يتخلى عن عنصريته وخيالاته (فهو لو فعل لظهر عارياً أمام نفسه وأمام العالم: القائد المهزوم) ولذا نجده يطعم خطابه بعبارات مثل «اليد الطولى» و«الوحد» ولكن الرسالة التاريخية الزمنية قد وصلت، واعترف بها رغم كل محاولاته أن يخبئها ويتملص منها.

ذكر باراك أن حزب الله استخدم أساليب قتالية متطورة تكتيكات عديدة، ولكنه لم يذكر جوانب أخرى، تُذكر الدارس بانتفاضة ١٩٨٧، وأهمها أن المواجهة لم تتم بين الجيش الغازي ومجموعة صغيرة من المقاتلين تم تدريبهم بكفاءة، وإنما تمت بين الجيش الإسرائيلي الغازي والكتلة البشرية اللبنانية بأسرها ومن ضمنها النخبة المقاتلة، وأن هذا مكنها من تحقيق قدر عالٍ من التماسك جعل من الاختراق مسألة

مستحيلة وزاد من ثقة المقاومة بنفسها فاستطاعت هي من اختراق العدو واستخدام أحدث وسائل الدعاية والاستخبارات، وهذا ماحدث تماماً إبان الانتفاضة، وهذا ما حقق لها قدراً كبيراً من الاستمرار والنجاح، فأمام مثل هذا الحائط البشرى التاريخى ماذا يمكن للعدو أن يفعل؟

لقد تحولت «الحدود الآمنة» و«الحزام الآمنى» إلى «مستنقع» و«كابوس» و«مأساة» (هذه كلها صور مجازية إسرائيلية). وحتى يُسكت معارضيه استشهد باراك بمناحم بيجين الذى قال: «إن لبنان مأساة، لا يمكن تحملها»، ثم أضاف أن بيجين بعد اكتشافه هذا ضرب على نفسه العزلة إلى أن مات كمدًا (حينما ذكرت وقتها ذلك فى إحدى مقالاتى تهكم أحد الواقعيين العرب على، وأخبرنى أن الرجل مات حزناً على زوجته، وأتهمنى بمرض التفاؤل الثورى وعدم تقبل واقع الاحتلال.. السرطانى).

إن «المستنقع اللبنانى» أصبح صورة مجازية أساسية فى الوجدان الإسرائيلى (بعد أن كانوا فى الماضى يتباهون بأنهم جاءوا إلى فلسطين فوجدوها مستنقعات وصحارى، فجففوا المستنقعات وزرعوا الصحارى)، ولكن باراك، مثل معظم الكذابين، يفقد أحياناً سيطرته على الصور المجازية التى يستخدمها كحماية دخان لتغطية رؤيته الحقيقية فتفضحه بدلاً من أن تستره، فيقول: «إن منهجنا هو تجفيف المستنقع» [عن طريق الانحباب]، ولكن إذا كان الانحباب هو تجفيف المستنقع، فالماء الراكد

إذن هو جيش الغزو الصهيوني، وجنوده هم البعوض، أليس كذلك؟. ثم ينطق باراك بالحق، «لم أر قوة عسكرية أصبحت أكثر قوة، أو أى أمة أكثر ثقة بنفسها، بأن حاربت ضد رجال العصابات المقاتلة فى بلد آخر». ويقر باراك: «أن القيادة لابد أن تنظر للواقع بعيون مفتوحة، حتى لو كان هناك شىء من القسوة فى ذلك» فيقرر الانسحاب. ولكن ما هى القسوة فى أن ينسحب صاحب اليد الطولى الذى يطارد البعوض؟ القسوة تكمن فى أن البعوض ليس ببعوضاً، وإنما مقاومة حاولت ونجحت فى تحرير الأراضى المحتلة، وأنها تمثل أنبل القيم الإنسانية، وأن صاحب اليد الطولى هو جيش مستعمر قطعت يده أو حرقت أصابعه، فولى الأدبار، وقد بدأ يدرك أنه جيش استعماري ظالم يمثل أخس ما فى الإنسان.

إن إفرام سنيه كان أكثر دقة وأمانة فى وصفه للواقع الإسرائيلى حينما قال: «نحن نفضل كوليرا الانسحاب على سرطان وطاعون بقاء الاحتلال»، فصورة المرض المجازى تُستخدم هنا لوصف كل من الاحتلال والانسحاب، فبقاء القوات الإسرائيلىة مرض وانسحابها مرض، والاختيار هنا بين الأمرين أو المرضين، ولكن علينا نحن العرب أن نتذكر أن ما حوّل الاحتلال من نزهة خلوية إلى كوليرا هو مقاتلو حزب الله.

محاولة توظيف الانسحاب

ويقترض الإسرائيليون - كما أسلفنا - أن العرب مفعول به، يمكن تحريكهم كما يشاء المستعمر الصهيونى ويمكن القول بأن المشروع

الصهيوني ككل يستند إلى هذا التصور، أليست نقطة الانطلاق هي الغياب العربي؟ فلو أن العرب موجودون بالفعل، فهل هناك مجال للوجود الصهيوني؟ أليست فلسطين أرضًا بلا شعب؟ وأليس وطننا العربي مجرد «منطقة»، مكان بلا زمان وجغرافيا بلا تاريخ، ومساحة يتحرك عليها بشر لا يمكن أن يُحسب لهم حساب؟

ولذا تصور الإسرائيليون أنهم بانسحابهم سيحققون عدة أشياء من بينها أنهم سيعطون العالم صورة إيجابية عن أنفسهم، فهم يمثلون لقرار هيئة الأمم ٤٢٥ باعتبارهم جماعة متحضرة. ولكن من يمكن أن يصدق مثل هذه الأكذوبة/النكتة، تنفيذ القرار بعد مرور ٢٢ عاما، هكذا وبدون مقدمات؟ هل استيقظ الضمير الإسرائيلي فجأة، وبث الله النور في صدورهم؟

ولكن العالم كله يعرف أن هناك أجنحة خفية، فالتصور الإسرائيلي للمنطقة هي أن تُقسّم إلى دويلات إثنية وعرقية ودينية متنافرة متناحرة (دولة كردية - دولة شيعية - دولة سنية - دولة مارونية، وهكذا)، ومن ثم يمكن لإسرائيل أن تكون الدولة القائدة. وكان التصور الإسرائيلي أن لبنان هي أكثر دولة مرشحة للتقسيم وتجربة الحزام الأمني كانت في تصورهم هي البداية. ورغم فشلهم في ذلك (فالقائمة الإسلامية في لبنان كانت تضم مسلمين ومسيحيين، إيمانين وعلمانيين، تمامًا مثل جيش لحد العميل، فهو لم يكن جيشًا، مسيحيًا، كما يحلو للبعض أن يروجوا، وإنما كان لقيفا من نفاية المجتمع اللبناني ككل)، نقول رغم فشلهم إلا أن الصهاينة لا يتعلمون من التاريخ (وكيف يتعلمون منه وهم

ينكرونه)، ولذا فهم لا يزالون يتصورون أنهم بانسحابهم يمكنهم زرع الفرقة فى لبنان وأن يجعلوه يسقط صريح القتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين وبين الشيعة والسنة... إلخ، وأنهم يمكنهم أن يصعدوا الخلافات بين الجيش اللبناني والمقاومة بأن يصروا على ضرورة نزع سلاح المقاومة وأن يقوم الجيش اللبناني بحماية المنطقة الشمالية لإسرائيل، وهم أخيراً يتصورون أنهم بانسحابهم سيمكنهم تحقيق ما يريدونه من فصل للمسار السوري عن المسار اللبناني (تتلخص الإستراتيجية الإسرائيلية فى التعامل مع كل دولة عربية على حدة، حتى يمكن التهامها كاللقمة السائقة).

وكل هذا بطبيعة الحال ممكن، ولكن قيادة حزب الله أظهرت وعياً بحيل العدو، إن كان فى تعاملها مع سكان المناطق المحررة أو حتى مع العملاء الذين سلموا أنفسهم، فلم يتم اضطرادهم أو رجمهم كما فعل الفرنسيون مع المتعاونين مع النازيين.

كما أن لبنان (وسوريا) قد بينا للعدو أن انسحابه ليس هو نهاية المطاف؛ فهناك قضية مزارع شبعا، وقضية تعويض لبنان عن الأضرار التى حاققت بها نتيجة الاحتلال. وهناك قضية المعتقلين اللبنانيين فى السجون الإسرائيلية، وأخيراً هناك القضية التى لم يطرح الصهاينة أى حل لها منذ تأسيس المنظمة الصهيونية وهى قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم حسب بعض الإحصاءات عن ٣٥٠ ألف لاجئ.

تساقط الأساطير

وقد بدأت الأساطير الصهيونية تتآكل الواحدة تلو الأخرى، فبدلاً من التوسعية الصهيونية. ها نحن نرى الانكماشية الصهيونية، والانسحاب المذل وبدلاً من أمريكا المسكة بكل أوراق اللعبة، قالت إحدى الصحف الإسرائيلية (مستخدمة نفس الصورة المجازية) « لقد كسب حزب الله كل الأوراق ».

ولتأخذ مثلاً آخر، أسطورة ماسادا التي يُراد منا تصديقها. لم يقف التاريخ عام ١٩٦٧ بل استمر فطوّر الإنسان العربي نفسه وتحرك عام ١٩٧٣ فتساقط خط بارليف، فهو لم يكن حائطاً منيعاً ضد التخلف الشرقى (كما ادعى هرتزل)، بل كان مليئاً بالثقوب مثل قطعة الجبن (كما قال ديان)، ومن المعروف أن القوات الإسرائيلية التي حوصرت في خط بارليف عام ١٩٧٣، استسلمت بطريقة عملية رشيدة للغاية على مسمع ومرأى الصليب الأحمر الدولي والتليفزيون المصرى، وفى أحد هذه المواقع سأل الجنود قادتهم بتهكم إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت لإقامة ماسادا ثانية، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التليفزيون المصرى.

وأثناء انتفاضة ١٩٨٧ لم يتحدث أحد عن ماسادا وإنما تحدثوا عن الطائفة المروحية. وما هى خكاية الطائفة المروحية هذه؟ يقول شارون إنه إن لم يصمد الإسرائيليون فستأتى الطائرات المروحية وسيقتلها الإسرائيليون من على سطح السفارة الأمريكية، كما حدث فى حرب

فيتنام عند انسحاب القوات الأمريكية، وقد كتب أحد الشعراء
الإسرائيلييين (حاييم حيفس) آنذاك قصيدة بعنوان «سنرحل جميعاً إلى
أمريكا»، تبدأ القصيدة بالتصويت في الكنيست على الخروج الأخير،
ولذا «فلنرحل إلى أمريكا الآن/ فلقد للمنا حقائبنا وأمانينا»، ويتدافع
الجميع دون نظام (ولانتزاحموا.. لكل مكانه/ عفواً لاتضغطوا هكذا). لقد
حزمت الحكومة حقائب الرحيل إلى أمريكا. ويتصور رئيس الوزراء عملية
الخروج السريع هذه وهو يجلس في مقعده في الطائرة، ويروق له المقام/
يعلن أن لا مكان للباقيين هنا»، فلسان حاله وحال وزرائه هو «نحن
ومن بعدنا الطوفان»، إن الصورة السائدة هنا عكس صورة البطل في
ماسادا الذي يهلك مع رفاقه :

وبسرعة أخذت الطائرة . . . تطير

أما الدولة

فقد هجرت

وحيدة . . . تركت . . . إسرائيل

تركت بقية الشعب رغم أننا جميعاً . . . في الرحيل إليها . . . راغبين

بعيداً عن ماسادا المتهالكة، بعيداً عن صهيون التي اشتعلت فيها
النيران، إلى الولايات المتحدة الوطن القومي الآمن وربما الحقيقي.

وقد انتحر عدد من الجنود الإسرائيليين في جنوب لبنان ولم يكن
انتحارهم تعبيراً عن الإصرار في الدفاع عن أماكنهم، وإنما كان احتجاجاً

على حرب لا معنى لها من وجهة نظرهم. كما لوحظ تصاعد ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية. إن أسطورة ماسادا، شأنها شأن الأساطير الأخرى، مثل المقاتل الصهيوني الشرس، واليهودي الشيطان الذى يُسيّر العالم هى مجرد أكاذيب تهدف إلى تنشيط لهمة وإشاعة عقلية الهزيمة.

ويعبر نشيد الهاتيكفاه (الأصل) نشيد الحركة الصهيونية، والنشيد القومى الإسرائيلى، عن واحدة من أهم الأساطير الصهيونية، اسطورة الشعب الواحد الذى يتوق للعودة لوطن أجداده:

« ما دامت روح اليهودى

فى أعماق القلب تتوق

ونحو الشرق

تتطلع العيون لصهيون ،

أملنا لن يُفقد أبداً »

ماذا فعل الجنود الصهاينة بنشيدهم الصهيونى هذا، بدلاً من التفاخر بالعلم الصهيونى القديم غنوا نشيدهم فى جنح الظلام وبسرعة ثم فروا من المستنقع والمأساة والجحيم. ولعلمهم فى خروجهم اكتشفوا أن كلمات النشيد اكتسبت معنى ساخرة، فعيونهم تنطلق إلى صهيون بالفعل، ولكن صهيون لا يمتد من النيل إلى القرات، وإنما اكتمت لتصبح غسراثيل داخل حدود ١٩٤٨ ، بل إن شمال صهيون المجاور لجنوب لبنان، أصبح يعيش فى حالة رعب وانهيار أكثر من ذلك الانهيار الذى حدث

لجيش لبنان الجنوبي: فقد ساد الفزع المستوطنين وغادرت أعداد كبيرة منهم إلى وسط إسرائيل عند ذويهم، وعرض أعداد منهم منازلهم للبيع، أى أنهم خرجوا من شمال إسرائيل مثلما خرجت القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، والبقية تأتي بإذن الله.

و« الخروج » فى الوجدان اليهودى عادةً مرتبط بالخروج exodus من مصر أيام موسى التوراتى، ثم أصبح يشير إلى الهجرة الاستيطانية إلى إسرائيل، ولكن المصطلح ارتبط مؤخرًا فى الوجدان الإسرائيلى الحديث بواقعه المتردى. ولذا سميت هجرة الإسرائيليين إلى الولايات المتحدة الخروج الثانى، أو الخروج من صهيون. فهل سيمسّى الانسحاب من بيروت «الخروج الثالث»؟ وماذا عن الخروج الرابع والأخير بإذن الله والذى أشار له الشاعر الإسرائيلى فى قصيدته ؟ !

باب الجهاد والاجتهاد مفتوح، وهذا ما أكده الجنرال الإسرائيلى شاؤول موفاز. فحينما أخبره أحد الصحفيين الأمريكيين أن الأمر قد انتهى بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، قال مستنكرًا، عمّ تتحدث؟ إنتهى؟ هذا وضع جديد ولنر ماذا سيحدث؟ ومن يجتهد ويجاهد هو الذى سيقدر طبيعة النهاية، أما الواقعية والاستكانة فتأججها مضمونة تمامًا. الهزيمة النكراء!